علم اللغة في التراث العربي وعند الغرب: مقارنة تطوراته وموضوعاته عند العرب والغرب

Bagus Andrian Permata

Abstrak:

Keberadaan al-Qu'ran tanpa diragukan merupakan pengakuan secara eksistensial bahwa bahasa Arab memiliki nilai linguistik dan sastra yang melebihi bahasa lain di dunia ini. Jauh sebelum muncul dan berkembangnya ilmu bahasa, penduduk Arab sudah memiliki peradaban maju dalam kesustraan dan kebahasaan, hal tersebut dapat dibuktikan dengan berbagai macam kajian kebahasaan Arab mulai jaman Rasulullah Muhammad saw hingga sekarang yang masih tetap memiliki keistememaan dan keindahan yang menarik untuk diungkap. Kajian mengenai (linguistik) bahasa Arab sudah dilakukan oleh para ulama' jauh hari sebelum Barat menemukan jati diri kebahasaannya. Meskipun dinamika kajian bahasa Arab selalu berkembang mengikuti perkembangan keilmuan, khususnya dalam bidang kebahasaan, namun bahasa Arab tidak pernah tercabut dari akarnya dan masih tetap murni, hal tersebut dikarenakan keberadaan al-Qur'an yang menjadi kitab suci agama Islam dan juga sebagai perisai bagi kemurnian bahasa Arab. Berbeda dengan bahasa Arab adalah bahasa latin (Inggris), meskipun sekarang memiliki popularitas dan pengaruh dalam dunia global namun dalam jejak sejarahnya tidak bisa lepas dari politik dan filsafat Yunani. Oleh sebab itu, ditinjau dari perspektif historis, bahasa Inggris saat ini tidaklah semurni bahasa Arab. Melalui tulisan ini, peneliti mencoba mengkaji secara komparatif terkait sejarah perkembangan dan tema kajian linguistik Arab dan Barat (latin) pada periode klasik dan pertengahan, juga bagaimana karakteristik keduanya yang dipengaruhi oleh dinamika keagamaan, sosiologi dan politik. Kajian ini sangat penting untuk menjembatani kajian linguistik kontemporer, khususnya kajian linguistik Arab.

Kata Kunci: *'ilm al-Lughoh, Turats 'Arabiy, Turats Gharbiy*

مقدمة

اهتم الباحثون والدارسون منذ زمن ليس بالقريب، باللغة، لمعرفة أصلها ونشأتها وطبيعتها، وكيف تتكون تراكيبها، وبالمعاني التي تؤديها التراكيب، وبالوظيفة التي تقدمها اللغة في المجتمع وفي الفرد. ولو اتبعنا تاريخ المجتمعات البشرية المعروف، لوجدنا أن اللغة من أبرز الظواهر التي نالت الاهتمام في البحث والتفكير. اهتم العلماء بهذا الميدان تحركهم دوافع متباينة كثيرة، منها الاجتماعية، ومنها السياسية، ومنها الاقتصادية، ومنها القومية، ومنها الدينية، فخلف هذا تراثا هائلا تراكم مع العصور، فيه الغث ومنه الثمين، فيه المناقشة العلمية الجادة الواعية للقضايا الرئيسية في اللغة وأصولها[١].

[١] ذلك فيما كتبه الفلاسفة اليونان والرومان القدماء، من أفلاطون في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وأرسطو (٤٤ ق.م) وشيشرن (٤٣ ق.م) ويولوس قيصر (٤٤ ق.م) وقارون (٢٧ ق.م) إلى غيرهم في العصور المتلاحقة، وكانت هناك مناقشات أقل عمقا

الدراسات اللغوية منذ نشأتها في الأمم القديمة وتطورها عبر التاريخ حتى العصر الحديث متنوعة المناهج ومتعددة الموضوعات، فتارة تعتمد على الفلسفة، فيكون العقل والمنطق هما أساس البحث والدراسة، وتارة أخرى تبتعد النظريات اللغوية عنهما، فتكون التجربة والملاحظة عماد البحث ووسيلته، لذلك كان تاريخ هذه النشأة و رصد حركة التطور أمرا ضروريا وهدفا علميا ثمنيا.

خلال هذا البحث سيحاول الباحث عرض بعض المعلومات عن هذه القضية بدءا من دراسات لغوية عند اليونان والرومان، لأنهما مصدران أساسيان في مجال علوم اللغة، ثم دراسات لغوية في العصور الوسطى عند العرب والغرب وتليها المقارنة بينهما في تطوراتها وموضوعاتها. وحدد الباحث بحثه إلى هذا الحد ليصل إلى بيان مرجو وسوف يواصله في البحوث التالية في المناسبة الأخرى.

البحث

علوم اللغة عند الأمم القديمة

اليونان والرومان

يكون من الناسب أن يبدأ الباحث تاريخ الدراسات اللغوي الغربي بإنجازات اليونان القدماء. إن الدراسة اللغوية في العصور اليونانية لها تاريخ طويل جدا، أي منذ القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا حتى القرن الثاني الميلادي، كان ذلك حوالي ٦٠٠ عام. فمن المعروف أن التفكير اللغوي في اليونان نشأ في أخضان الفلسفة، وبقى زمنا غير قصير جزءا منها، فإن الفلاسفة اليونانية هم الذين بدؤا البحث في اللغة ومشكلاتها. كانت المشاكل الرئيسية للغة التي كانت التناقضات في ذلك الوقت وهي الاختلافات بين الطبيعي (*physis*) و العرف (*nomos*)، و بين الأطراد أو القياس (*analogy*) والشذوذ (*anomali*) وبين الدال والمدلول، هذا النقاس استمر عدة قرون حتى عصر أفلاطون وأرسطو.[٢]

وساهم فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد في تقدم الدراسات اللغوية، فقد اهتموا بالتطبيق الصحيح والكامل للغة في كثير من التحليلات اللغوية، والتي جاءت عادة مرتبطة بتفسيرهم لشعر الشعراء، وقد أشار بروتاجوراس *Protagoras* مثلا إلى الاختلاف بين الاستعمال اللغوي عند هوميروس والتركيب المنطقي، كما قسم الأسماء بالنظر إلى الجنس إلى ثلاثة أنواع: مذكر (*maskulinum*) ومؤنث (*femininum*) ومحايد (*neutrum*).[٣]

وإذا كانت الدراسات اللغوية ازدهرت عند اليونان في أخضان الفلسفة فإنها اعتمدت اعتمادا كبيرا على الأدب، وقد نادى أفلاطون وأرسطو[٤] بحق المتكلم في استعمال لغته. ويتضح في محاورة أفلاطون المسماة *Cristylos* أن اللغة ثابتة ومتغيرة في الوقت نفسه ويشير إلى أن الجملة –وليست الأسماء– يمكن أن توصف بأنها صحيحة أوحقيقة، وقد واصل أرسطو هذا التحليل ولكن بالنظر إلى الاستعمال المنطقي والشعري والبلاغي للغة. ولوكان الاتصال بينه والآخر هو الاتصال بين طالب وأستاذه بل يأتي الخلاف بينهما في النظر إلى اللغة وفهمها. وكان من نتيجة الخلاف بين أفلاطون وأرسطو نشأت مدرستان هما: مدرسة الشذوذيين (*anamaliste*) ويتزعمها كراتيس ((*Krates* (عاش حولي سنة ١٢٠ ق.م) وتتبع أفلاطون، ومدرسة القياسيين (*analogist*) ويتزعمها الرياض

وأبعد عن الدقة العلمية. تقوم معظمها على محاولات لربط اللغة بالسحر والشعوذة لامور دينية. خليل أحمد عمايرة، *المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي* (دبي: مؤسسة علوم اللغة ١٩٩٠)، ص. ١٣

[٢] محمود جاد الرب، *علم اللغة نشأته وتطوره* (القاهرة: دار المعارف ١٩٨٥)، ص. ٦

[٣] نفس المرجع. ص. ٦

[٤] عاش أفلاطون من ٤٢٧ حتى ٣٤٧ قبل الميلاد وأرسطو بين عام ٣٢٢ حتى ٣٨٤ قبل الميلاد. يرى أفلاطون أن اللغة إلهام وموهبة نشأت مع الإنسان ومن ثم ينبغي أن يدور البحث حول الألفاظ الأولى في اللغات المختلفة. ويرى أفلاطون أن اللغة ليست إلهاما أو موهبة إنسانية، بل نظاما لفظيا محددا نشأ نتيجة اتفاق بين أفراد جماعة بعينها.

أستراخوس (*Aristrachos*) (عاش في الاسكندرية بين عام ٢١٦–١٤٤ ق.م) وتتبع منهج أرسطو. وقد ظلت نتائج هذا الخلاف بينهما عهدا طويلا فتبعت الأول منهما الرواقيين بينما تبعت الثاني طائفة الابيقوريين[٥]

واعترف الرواقيون بأهمية الدراسات اللغوية، وتتناولوا بصفة خاصة للدراسات الفوناتيكية والنحوية و الدلالية، ووجهوا جل اهتمامهم إلى النحو، يرى كثير من الباحثين أن هذه الدراسات تعد البداية الحقيقية للدراسات النحوية العلمية عند علماء الغرب. واستطاع الرواقييون فصل الدراسات اللغوية عن الفلسفة واعتبروها فرعا مستقلا. ولما كان الراقيون يردون كل شيئ إلى المنطق حقيقة أنهم قد اعتقدوا أن النحو لازم أن يطابق المنطق، ولازم أيضا أن تطابق الفضائل أو الفروع النحوية أقسام المنطق أو مقولاته.[٦]

ومن هذا المنطلق كان علم اللغة في تلك الفترة وصفيا معياريا[٧]، ولم يبق من تلك الأعمال اللغوية إلا عمل واحد هو كتاب ديونسيوس تراكس (عاش في القرن الثاني قبل الميلاد) وهو كتاب صغير الحجم يتناول نحو اللغة الإغريقية، وقد ترجم إلى الأرمنية والسريانية. ويمكننا أن نلخص فيما يلي من الصفحات أهم ما توصلت إليه دراسات الفلاسفة وعلماء اللغة اليونانيين قي الفروع اللغوية المختلفة: الفنولوجيا، والصرف، والنحو، والمعجم.

أما في مجال الفنولوجيا[٨] فقد درست الأبجدية اليونانية وحللت الفونيمات، وقسمت الحروف (الأصوات) إلى سواكن حركات وأنصاف حركات. وفي مجال الصرف قد ميز أفلاطون بين ما يمكن ترجمتها بالمبتدأ والخبر، ويرى أرسطو أن أجزاء من السلسلة اللغوية فهي أنواع خاص من الكلمات، كما يذكر الحروف والمقطع والاسم. وأما الرواقيون فقد أشاروا إلى أنواع أخرى من الكلمات كأسماء الذوات، المنادى، الفعل، أدة الربط (العطف). وخلص جاد الرب بأن النظام صنف الكلمة إلى أنواع ثمانية معتمدا في ذلك معايير متعددة لغوية وفلسفية ومنطقية، وهي: الاسم، الفعل، اسم الفاعل واسم المفعول، الضمير، وأداة التعريف، و الحرف، و أدوات الربط، والظرف.[٩]

الرومان

كان الرومان لفترة طويلة على اتصال ممتع بالثقافة المادية والمفاهيم العقلية اليونانية من خلال المستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا وقد تعلموا الكتابة من اليونان الغربي ولكن خلال القرن الثالث والثاني قبل الميلاد سقط العالم اليوناني بالتدريج تحت حكم روما سيدة إيطاليا كلها في ذلك الوقت.

يمكن القول بدون مبالغة أن الرومان كانوا تلاميذ أوفياء لأساتذتهم الأغريق، وأ غلب ما وصلنا يدل على أن الرومان قد طبقوا أغلب المقولات اللغوية اليونانية في وصفهم للغتهم اللاتينية ، وحوالي ٢٧ ق م أطلع الرومان على آراء مدرسة الإسكندرية والرواقية وهذا ما يظهر جليا في العمل الضخم الذي قدمه اللغوي والفيلسوف الروماني فارو *Varro* في كتابه «عن اللغة اللاتينية» (de lingua latina) وهو مؤلف من ٢٥ مجلدا وصل منها خمسة أجزاء من الخامس إلى ١٠ وقد كان فاروا رواقيا إلى حد بعيد ،ومتأثرا بآراء أستاذه «ستيلو» ،كما يظهر تأثره «بديونسيوس ثراكس في تعريفه للقواعد فهو يقول : «هي المعرفة النظامية لاستعمال معظم الشعراء والمؤرخين والخطباء» وأبرز ما

---

[٥] عبد الرحمن أيوب، *اللغة والتطور*، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات، ١٩٦٩)، ص. ١٠

[٦] محمود جاد الرب، *علم اللغة نشأته وتطوره*. ص. ١٠

[٧] وصفيا لأن لغوي هذا العصر وصفوا الواقع اللغوي كما هو في المناطق التي تتحدث اليونانية، ومعياريا لأنهم اتخذوا النماذج الأدبية الكلاسيكية أمثلة ينبغي أن تحتذي في خصائصها اللغوية وتركيباتها النحوية.

[٨] وخطا علم الصوتيات خطوات أخرى للأمام على أيدي الرواقيين الذين عرفوا دراسة أصوات الكلام باعتبارها جانبا متميزا من دراسة اللغة، فقد ميزوا بثلاثة جوانب للجراما، مؤكدين في ذلك على وحدتها الصوتية الإملائية، فقيمتها الصوتية تكون على سبيل المثال (a) وصورتها ا لكتوبة تكون (α) والاسم الذي يطلق عليها هو ألفا (alpha) وقد استمر التمييز بين هذه الخصائص الثلاث خلال العصور القديمة حيث كانت أسماؤها اللاتينية هي: potestas (قوة) figura (صورة) nómen (اسم). ر. ه. روبنز، موجز *تاريخ علم اللغة (في الغرب)*، (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٧)، ص. ٤٨

[٩] محمود جاد الرب، *علم اللغة نشأته وتطوره*. ص. ١٣–١٤

قدمه هذا العالم تقسيمه للدراسة اللغوية إلى: الاتيمولوجيا والصرف والنحو ففي اللغة ثروة مفرداتية ناشئة عن أنواع من الاشتقاق هي التي أوجدت هذا الزخم الكبير من الألفاظ وتغير الصيغ عبر التاريخ عائد إلى الاقتراض اللغوي بين اللاتينية والاغريقية ، بل عائد إلى أصول أوربية وهذا ما لم يكن معلوما على الاطلاق في تلك الفترة[١٠].

ولم يتقدم علماء اللغة اللاتينيون كنظرائهم اليونانيين تماما دراسات تاريخية دياكرونية بجانب بحوثهم الوصفية في اللغتين على السواء، حيث لا نجد دراسة تاريخية للصلات اللغوية بين اللاتينية واليونانية، هذا بالإضافة إلى عدم اهتمامهم بلغات أخرى غير هاتين اللغتين، ومن ثم بقيت دراسة اشتقاق الكلمات عند هؤلاء العلماء دون جدوى. حقيقة قد نعثر أحيانا على دراسات متناثرة تتناول الصلة بين هاتين اللغتين كالتي نجدها عند فارو، حيث أشار إلى أن الأبجدية اللاتينية مأخوذة من اليونانية، كما اعتبر أن اللاتينية مشتقة مباشرة من اللهجة اليونانية الغربية التي امتجت بالبربرية[١١].

أما التأليف في القواميس اللاتينية فقد بدأ متأخرا جدا عن التأليف في المعاجم اليونانية، وأول مؤلف هو ماركوس فيريوس فلاكوس Marcus Varrius Flaccus الذي عاش في القرن الأول الميلادي ثم توالى بعد مدة ليست بالقصيرة التأليف في المعاجم اللاتينية وكان هدفها شرح الكلمات الصعبة في هذه اللغة. ومن المهم أن نشير إلى أن القواميس اللاتينية تأثرت في طريقة ترتيبها للمادة اللغوية بالقواميس اليونانية. ويقال دائما: إن القواميس اليونانية لاتعد الأساس للقواميس اللاتينية فحسب، بل لكل القواميس في اللغات الأروبية الحديثة كالفرنسية والألمانية والإيطالية أيضا[١٢].

وأفضل الأعمال التي قام بها اليونان (والرومان) كانت في ميدان القواعد. فإن النظريات والمقولات و المصطلحات التي ابتدعها العلماء القدماء فيما يتعلق بقواعد لغاتهم، قد أصبحت جزءا من الأدوات القواعدية العامة للغة في وقتنا الحاضر.

علوم اللغة في العصور الوسطى

عند العرب

من المعروف أنه لم تؤثر عن العرب أي نوع من الدراسات اللغوية قبل الإسلام، أي أن البداية عندهم جاءت متأخرة زمنية عن البدايات في الأمم الأخرى[١٣]. لا نود في هذا المقام أن نعرض بالتفصيل لمرحلة تطور اللغة ونشأتها عند علماء العربية القدمى.

كان النبي صلى الله عليه وسلم المرجع الأساسي لكل ما يعين للمسلمين من ألفاظ غامضة أو معان صعبة في القرآن الكريم، وبعد انتقاله إلى رفيق الأعلى، قام بهذه المهمة الصعبة صحابة اشتهروا بالعلم والمعرفة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عباس وغيرهم. وتتحدث الروايات عن ابن عباس مؤلفا في غريب القرآن ولعل هذا المؤلف كان أقوال ابن عباس وتفسيراته لبعض ألفاظ القرآن الكريم، وتتابع بعد ذلك كتاب غريب القرآن وغريب الحديث

---

[١٠] نفس المرجع، ص. ١٧

[١١] نفس المرجع، ص. ١٧

[١٢] نفس المرجع، ص. ١٩

[١٣] أ) اليونان والرومان: أن االتفكير اللغوي نشأ في أحضان الفلسفة منذ القرن الخامس قبل الميلاد، كما كانت طبيعو العلاقة بين الدال والمدلول جحل نقاش استجر عدة قرون حتى عصر أفلاطون وأرسطو. ب) الصنيون: نشأ البحث اللغوي عند الصنيين منذ القرن الثاني قبل الميلاد استجابة لدراسة الأدب الكلاسيكية والنصوص القديمة ورغبة في تدوين نظام الكتابة التصويرية التي كانت تكتب بها اللغة الصينية القديمة. ج) الهنود: ترجع الدراسات اللغوية في الهند إلى قون عديدة قبل الميلاد، وكان الدين البراهمي (the Bramin religion) سببا في الاحتفاظ ببعض مجموعات من التراتل القديمة جدا كنصوص سرية لهذا الدين، وترجع أقدم هذه النصوص والتي تسمى Rig – Veda إلى حوالي ١٢٠٠ قبل الميلاد. اقرأ: محمود جاد الرب، *علم اللغة نشأته وتطوره*، ص. ٥ – ٢٠

مثل كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى (١٢٠ ه) في غريب الحديث وكتاب أبي سعيد بن تغلب بن رباح الكبرى (١٤١ ه) في غريب القرآن.

وبعد تلك المرحلة الأولى في جميع المادة اللغوية دون ترتيب أو تنظيم، بدأ اللغويون المراحل التالية كما يلي:

الطور الأول: طور الظهور والوضع

أصبحت معرفة اللغة العربية ضرورة لأغراض الإدارة سوى الدينية وإنجاز الإجراءات القانونية والسياسية ووسيلة للمناصب العليا في الدولة الإسلامية، لأن العربية أخذت تحتل تدريجا المكانة التي كانت تحتلها الفارسية في فارس والأرامية واليونانية في بلاد الشام ومصر، فكانت هي الوسيلة الضرورية إلى تقلد المناسب العليا في الدولة. ومن الضروري الإشارة إلى أن اللحن الذي قد ظهر في كلام غير العرب بعد الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس وشام بل يظهر في بعض أبناء العربية أنفسهم يشجع حكام وأمراء أيام الأمويين أحرص الناس على عدم وقوعهم في الخطأ اللغوي، وكان اللحن أشد ما يكون على المسلمين في القرآن الكريم والحديث الشريف، لهذا كان أبو الأسود الدؤلي (٦٩ ه) ينهض لنقط المصحف ضبطا لإعرابه، فكانت هذه هي البداية التي لا جدال حولها النحو.[١٤] ثم بعد ذلك فإننا نرى أن الإبداع اللغوي والمناقشة الواعية قد برزت منهجا واضح المعالم في طرق معالجة قضايا اللغة والنحو على يد الخليل بن أحمد (١٧٥ ه) وتلميذه سبويه (١٨٠ ه)[١٥]

يعد الخليل بن أحمد أول من درس أصوات العربية وصنفها تصنيفا علميا دقيقيا يقوم على أسس عضوية فسيلوجية. ميز الخليل بين النوعين الرئيسين في الأصوات: السواكن والحركات، فالنوع الأول وهو ما يسماه بالحروف هي التي أولها علماء العربية جميعهم عناية خاصة وبذلوا جهدا كبيرا في تصنيفها وتقسيمها. أما الحركات فلم تحظ بمثل هذه العناية باعتبارها مساعدة للحروف في تشكيل الكلمة وبنائها[١٦].

إن الخليل أول من استنبط منطقا رياضيا في تصنيف الكلمات وجدْوَلتها باعتماد نظامين: نظام اشتقاقي صرفي يحصي الكلمات مستعملها ومهجورها باعتماد التقليبات والتشقيق، ونظام هجائي افترض فيه أن أول حرف في سلمه الجهري من أسفل الحلق هو حرف العين، فسمى به معجمه (العين)، ليكون أمارة على هذا النظام الصوتي في تخريج الحروف الذي رتب فيه كلام العرب ووضع باكورة علم الأصوات العربية، ومن ثم يعد الخليل أول من وضع علم اللغة وأبرزه إلى الوجود علما مصنفا. ويفضل الخليل بن أحمد في تطوير علم النقط والشكل العربي، ولولا فضله في ذلك لكان الخط العربي معقد القراءة والكتابة، ذلك أن الخط العربي كان غير منقوط في بداية كتابته، فكانت الباء تتشابه بالثاء والتاء، وكذا النظائر من الحروف مثل السين والراء والعين. ولم تكن الحروف كذلك معجمة بالحركات، فلا كسرة ولا ضمة ولا فتحة. ثم أدخل أبو الأسود الدؤلي النقاط وأكمله الخليل بابتداع الحركة والفتحة والضمة والكسرة التي نستعملها اليوم للتمييز بين الأوضاع الإعرابية الثلاثة[١٧]

وأما سيبويه هو كاتب أقدم كتاب النحو الذي وصل إلينا المسمى بكتاب سبويه[١٨] أنه لم يقسم ذلك الكتاب إلى موضوعات متفرقة ومتميزة، وقد بدأ يكتب في كتابه قضية الإعراب والنقل منها إلى عدة الأهداف الخاصة ببناء

---

[١٤] تمام حسن، الأصول: *دراسة ابيستيمولوجيا للفكر اللغوي عند العرب* (القاهرة: الهيئة المصرية العامة ١٩٧٢)، ص. ٢٣

[١٥] خليل أحمد عمايرة، *دراسات وآراء في ضوء علم اللغة المعاصر- في نحو اللغة العربية وتراكيبها (منهج وتطبيق في الدلالة)*، (عجمان: مؤسسة علوم القرآن، ١٩٩٠)، صز ١٣-١٤. في هذا العصر بذل العلماء اللغويون جهده في تأليف الكتب الأخرى منها الأشاء والإبل لأصمعي (١٢١هـ) والنوادر والهمزة والمطار لزيد القرشي (١٧٠)، ومعاني القرآن للفراء (١٤٤ هـ).

[١٦] محمود جاد الرب، *علم اللغة نشأته وتطوره*، ص.٣٠-٣١

[١٧] محمود فهمي حجازي، *علم اللغة العربية: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية* (القاهرة: مكتبة غريبة، دس)، ص. ٩٩-١٠٢

[١٨] يعد كتاب سيويه أساس الدراسات النحوية التي تلته حتى لقد سماه الناس قرآن النحو، ويشير أبو الطيب اللغوي إلى سيويه

الجملة، لم يصنع سيبويه مصطلحات متميزة في بيان الأصوات المتنوعة وبناء الكلمة أو الجملة، نستطيع القول، أنه يدخّل مباحثه في مجال واحد فهو مجال النحو. كان سبويه أنه وضع الإطار الشامل للنحو العربي، هذا على الرغم من تناول الكتاب لموضوعات أخرى يندرج بعضها في إطار علم الصرف والبعض الآخر في الأصوات والبلاغة.

أما المنهج الذي اتبعه سبويه في دراسته النحوية فهو منهج ينحو منحى الفطرة والطبع (دراسة معيارية) بعيدا عن المنطق اليوناني، يدرس أساليب الكلام في الأمثلة والنصوص ليكشف عن الرأي فيها صحة وخطأ. فلم يعلل التعليلات الفلسفية أو يقدر التفجيرات التي شاعت عند اللاحقين له، لأن سبويه عاش في عصر لم تكن فيه الفلسفة اليونانية أو المنطق اليوناني تسربا إلى النحو العربي ولا يعني ذلك بالضرورة خلا الكتاب من أي تأثير فلسفي، ولكنه يعني قلة التأثر بالمنطق اليوناني في المؤلفات الأولى.[١٩]

فمن الأمثلة الواضحة على تخلص سبويه من التعريفات التي ازدهرت عند النحات بعد عصره أنه لايعرف النوع النحوي وإنما يذكر أمثلته وتقسيماته، ويمكننا الوقوف على هذه الظاهرة من تناوله باب الكلام وتقسيمه إلى اسم وفعل وحرف دون تعريف أو تحديد لأي نوع منها.[٢٠]

الطور الثاني: طور النمو والإبداع اللغوي:

يمثل هذا الطور الذي وصلت فيه الدراسات اللغوية إلى درجة راقية اكتملت المقدرة اللغوية، استطاعت أن تستوعب خصائص اللغة وأسرار العربية، تمثل هذا الطور دراسات ابن جني (٣٢٢ ه) في كتابيه (الخصائص) و(سر صناعة الإعراب)، كتابه الخصائص يعني خصائص العربية وأسرارها وتعليل الظواهر اللغوية بعللها الحقيقية؛ ويبحث فيه أبحاثا خطيرة في أصل اللغة (أإلهام هي أم اصطلاح)[٢١] وفي مقاييس العربية، وواطرادها وشذوذها، وتصاقب ألفاظها لتصاقب معانيها، والتفاق اللفظين واختلاف المعنين، وتركيب اللغات واختلاف اللهجات وغيرها. بلغ ابن جني في علوم اللغة العربية من الجلالة، فقد كثرت مؤلفاته وامتازت بالتجديد في اللغة، وأطلق عليه «عبقري اللغة».[٢٢]

قائلا: أخذ النحو عن الخليل جماعة لم يكن فيهم ولا في غيرهم من الناس مثل سبويه وهو عمرو بن قنبر، وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل، وألف كتابه الذي سماه الناس قرآن النحو، وعقد أبوابه بلفظه زلفظ الخليل. محمود جاد الرب، غلم اللغة نشأته وتطوره (القاهرة: دار المعارف ١٩٨٥)، ص.٣٤

[١٩] أن الفلسفة اليونانية تسربت إلى الثقافة العربية بكثرة في عصر الخليفة المأمون الذي كان يميل إلى مذهب المعتزلة والذي يعتمد على الأدلة العقلية في المقام الأول. ثم بدأ الور الثاني في الثقافة العربية الإسلامية، وكان النحاة منذ ذلك الوقت يعتنقون مذهب الإعتزال فيخالطون الفكر اليوناني الذي جاءت به جهود الترجمة . بدأ بالفراء في القرن الثالث، وانتهى بأبي الفارسي وابن جني في نهاية الرابع. محمود جاد الرب، *علم اللغة نشأته* وتطوره ، ص.٣٥

[٢٠] قال سبويه: فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم وفعل، فالاسم رجل وفرس وحائط، وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى. ولما يكون ولما يقع وما هو كائن لم ينقطع، فأما بناء ما مضى فذهب وسمع ومكث وحمد، وأما بناء ما بم يقع فإنه قولك أمرا: اذهب واقتل واضربظن ومخبرا يقتل ويذهب ويضرب، وكذلك بناء ما لم ينقطعوهو كائن إذا أخبرت، فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الأسماء، والأحداث نحو الضرب والحمد والقتل. وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولافعل فنحو: ثم وسوف وواوالقسم ولام الإضافة وغيرها.

[٢١] ومن الممكن تقسيم أراء العلماء وأقوالهم بشكل عام إلى فريقين أو مذهبين رئيسيين، مذهب يمثله ابن فارس وآخر يمثله ابن جني. فالأول وهو مذهب ابن فارس يذهب إلى أن اللغة توقيفية والثاني وهو مذهب ابن جني يذهب إلى أن أصل اللغة هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف وكل منهما فصل في كتابه القول في أصل اللغة بالاستشهاد بالقرآن والحديث وأقوال الصحابة. وأهم ما احتج به ودار فيه النقاش بين المذهبين عن هذه المسألة قوله عز وجل في الذكر «وعلم آدم الأسماء كلها» الآية وحاول كل منهما تفسير المقصود من الآية بما يتماشى مع رأيه في الباب. محمود عكاشة، *علم اللغة: مدخل نظري في اللغة العربية* (القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠٠٦). ص: ٦٥–٦٩

[٢٢] محمد عبد الرحيم، *دور علماء العرب في علم اللغة (ابن جني نموذجا)* كلية اللغة العربية بأسيوط، المجلة العلمية –العدد

ويأتي ابن جني يفسر ويكمل أراء الخليل في الحركات قائلا: اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف، والياء والواو. فكان أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمة. فالفتحة بعض الآلف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو. وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة بالياء الصغيرة والضمة بالواو الصغيرة، وقد كانو في ذلك على طريق مستقيم.[٢٣]

وعرفت هذه المرحلة أيضا بدراسات ابن فارس (٣٢٩ ه)، ومن بين كتب المعاجم التي وضعت في اللغة انفرد ابن فارس في معجميه (المجمل) و(المقاييس) بطريقة خاصة تنسب إليه وحده؛ يقول الشيخ عبد السلام هارون: جرى ابن فارس على طريقة فذة بين مؤلفي المعجم في وضع معجميه: فهو قسم مواد اللغة أولا إلى كتب، تبدأ بكتاب الهمزة وتنتهي بكتاب الياء، ثم قسم كل كتاب إلى أبواب ثلاثة: أولها باب الثنائي المضاعف والمطابق، وثانيها أبواب الثلاثي الأصول من المواد، وثالثها باب ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية، والأمر الدقيق في هذا التقسيم أن كل قسم من القسمين الأولين قد التُزم فيه ترتيب خاص، هو ألا يبدأ بعد الحرف الأول إلا بالذي يليه؛ ولذا جاء باب المضاعف في كتاب الهمزة، وباب الثلاثي مما أوله همزة وباء مرتبا ترتيبا طبيعيا على نسق حروف الهجاء[٢٤].

ودراسات الثعالبي (٣٥٠ ه) بكتاب «فقه اللغة»، فإنه لم يضمنه إلا بعض المباحث القليلة التي يمكن أن تتعلق بهذا العلم، كإيراده بعض الألفاظ العربية التي نسبها إئمة اللغة إلى الرومنية، أو بعض الأسماء القائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد، أو الأسماء التي تفردت بها الفرس دون العرب فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هي، أو الأسماء التي ماتت فارسيتها مع أن عربيتها ما تزال مستعملة محكية. ثم تليها دراسات ابن سيدة الأندلسي. فقد عرض في كتابه (المخصص) لبعض البحوث المتعلقة بنشأة اللغة العربية، وبالترادف والتضاد والاشتراك والاشتقاق، وتعريب الألفاظ الأعجمية ونحو ذلك. هذا الكتاب يقع في سبعة عشر جزءا[٢٥].

قام أيضا بهذا الجهد جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ه في كتابه (المزهر)؛ ويريد عليها بعض الأبحاث الجديدة، ولعل كتابه –بتنوع أبوابه، واتساع أغراضه– ألصق المؤلفات بفقه اللغة: ففيه قراءة عن نشأة اللغة وتداخلها وتوافقها، والمصنوع والفصيح، والمستعمل والمهمل، والحوشي والغريب، والمعرب والمولد، والاشتقاق والاشتراك، والترادف والتضاد، والنحت، والتصحيف، والتحريف، والشوارد والنوادر، وما اختلف فيه لغة الحجاز ولغة تميم ويقع في جزئين كبيرين.[٢٦]

في هذا الطور الثاني نمت الدراسات اللغوية تطورت من قبلها، هذه الظاهرة لا تقع فجأة، فكما ذكرناه سابقا، أن النحاة بعد عهد سبويه يعتنقون مذهب الإعتزال فيخالطون الفكر اليوناني الذي جاءت به جهود الترجمة ويعتمدون الأدلة العقلية. من هنا، كانت الدراسات اللغوية تحلل بالمناهج الجديدة ولو كانت هي ما زالت في صورتها الأصلية التي اجتهد بها علماء العرب السلف.

الثلاثون، الجزء الثاني، أكتوبر ٢٠١١، ص. ١١٤٤

[٢٣] قال الخليل: «في العربية تسعة وعشرون حرفا، منها خمسة وعشرون حرفا صحيحا، لها أحياز ومخارج، وأربعة هوائية وهي الواو والياء والألف اللينة والهمزة» ذكر الخليل مخرج كل حرف منها ولكنه لايسلك هذا المسلك مع الألف والياء والواو حيث ينص على أن الألف اللينة والواو والياء هوائية، أي أنها في الهواء. محمود جاد الرب، غلم اللغة نشأته وتطوره (القاهرة: دار المعارف ١٩٨٥)، ص.٣٣

[٢٤] صبحي الصالح، *دراساتت في فقه اللغة* (بيروت: دار العلم للملايين)، ص.٢٤

[٢٥] نفس المرجع، ص.٢٤

[٢٦] نفس المرجع، ص.٢٥

عند الغرب

كان النحو الذي ألفه بريسكان ودوناتوس الأساس الذي اعتمد عليه في تعليم النحو اللاتيني خلال العصور الوسطى. وقد عثر على مالا يقل عن ألف مخطوطة من تأليف بريكسان في نحو اللاتينية ذاتها كانت لغة الدرس العلمي ولغة الاتصال بين الدول في أوروبا كما كانت لغة الكنيسة في الغرب.[٢٧]

أما في النصف الثاني من العصور الوسطى، أي ابتداء من عام ١٠٠٠، فقد حدث تطور هام في موقف الدراسة النحوية حيث ازدهرت الموسيقى الكنائيسية والرسم والعمارة القوطية، كما أثر إعادة اكتشاف الأعمال الفلسفية لأرسطو من خلال ترجمتها إلى اللاتينية وشروحها العربية ومن خلال اكتشاف بعض المخطوطات اليونانية، أثر ذلك كله على الفكر اللاهوتي، وتتحدث اللاهوتية لذلك على أنها خليط من علم اللاهوت الكاثوليكي والفلسفة الأرسطية، وقد ساهم في ذلك إلى حد كبير توماس الأكوينس (القرن الثالث عشر)[٢٨]

وكان من الصعب في تلك الفترة التمييز بين الدراسات النحوية والمنطق وبخاصة عندِ أنسلم Anselm (١١٠٩ م) وأبيلارد Abaelard (١١٤٢ م) ويعتبر بطرس أبيلارد زعيم نهضة تحريك الفكر في القرن الثاني عشر، وهو صاحب فلسفة الشك والتشكك في كل شيء حتى في طبيعة المسيح نفسه، وله كتاب معروف باسم «نعم و لا \ sei et non». أما أنسلم فهو أحد رؤساء أسافقة كانتربري وقامت فلسفة على أساس تقبل الإيمان دون جدل ولا مناقشة. وسميت مثل هذه الدراسات النحوية الفلسفية بمنطق النحو أو بعبارة أخرى تسويغ القواعد النحوية منطقيا، وأنكرت هذه الدراسات البحوث التي كانت تعتمد على النصوص أو ما تسمى بالتجريبية التي كانت توصف بها الدراسات اللغوية في العالم القديم.[٢٩]

أما تأثير اللاهوتية على الدراسات النحوية فكان واضحا فيما سمي بنظرية النحو التأملي grammaticae speculativae، وسمي لغويو النصف الثاني من القرن الثالث عشر باسم Modistae، وهم أصحاب نظرية لغوية لا تقنع بطبيعة اللغة بصفة عامة بل تحاول عرض أجزاء اللغة من وجهة نظر واحدة. وأشهرهم مارتينوس دي دكيا Martinus De Dacia (١٢٧٠ م) وبوتيوس دي دكيا Boethius De Dacia (١٢٧٠ م) وردولفوس بريتو Radulphus Brito (١٢٩٠ م) وغيرهم. قد لعب هؤلاء العلماء دورا كبيرا في تاريخ المنطق أيضا، واستمرت هذه النظرية النحوية حتى عصر النهضة النحوية حينما هاجماها علماء الأدب واللغات[٣٠].

إن الملامح الهامة في نحو العصور الوسطى (وبخاصة عند Modistae) إن Modistae تمجد العناصر الدلالية كل كائن لديه بعض الخصائص المميزة التي يسمونها Modi Essendi، يمكن للعقل البشري فهو التصور بشكل نشطي Modi Intellegendi Activiti أوسلبي Modi Intellegendi Passivii. و هذان التصوران يصرفان إلى الأصوات (Voice) أو فعل حركي Modi Significandi Activi الذي ينقسم إلى اللفظ الظاهر (Dictiones) والملفوظ (Partes Orations). وكان Modi Significandi هي أهمية البحث في تحليل اللغة[٣١].

كما أن هناك شبها آخر بين التحليل النحوي في العصور الوسطى وبخاصة عند Modistae والتحليل النحوي عند القدماء، وهو أن التحليل لا يبدأ من أعلى في الجملة أو بعبارة أخرى من الكل، بل من أعضاء التركيب، ثم تتجمع هذه الأعضاء في وحدات أكبر، وإن كان يختلف عنه في أنه يبرز الصلات بين هذه المكونات.

يتكون هذا التحليل من ثلاثة أركان أساسية هي: الارتباط أو التركيب construction والمطابقة congruitas والتكامل Perfectio، فالتركيب هو تأليف الكلمات من خلال المكونات والتطابق هو أن العلاقة بين الكلمات ليست

---

[٢٧] محمود جاد الرب، *علم اللغة نشأته وتطوره*، ص.٣٣

[٢٨] نفس المرجع، ص.٣٩

[٢٩] نفس المرجع، ص.٣٩–٤٠

[٣٠] نفس المرجع، ص.٤٠

[٣١] ر. ه. روبنز، موجز *تاريخ علم اللغة (في الغرب)*، (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٧)، ص: ١١٨

مجردا ارتباط فقط، بل تصل إلى حد التطابق، ويصل الإنسان أخيرا إلى التكامل حيث تنتج جملة كاملة الفهم. كذلك يتكون كل تركيب أوجملة من مكونين فقط وهما المكونان الرئيسيان في الجملة، ثم ترتبط المكونات الأخرى بهما. فالجملة العربية «ينجح الطالب المجتهد في الامتحان» تتكون بهذا الاعتبار من العنصرين الأساسيين: ينجح، الطالب، على حين ترتبط العناصر الأخرى بهذين العنصرين، فترتبط «في الامتحان» بالفعل «ينجح» وترتبط كلمة «المجتهد» بالطالب[٣٢].

نأخذ النتيجة من هذا العصر، فإن التحليل النحوي في العصور الوسطى وبخاصة عند Modistae يستحق النظر والاهتمام، فقد حاول أن يصف الصلات النحوية بين أعضاء الجملة أو التركيب، وإن كان لم يصل هذا التحليل إلى درجة من النضج والتماسك، كما هو الحال عند المحدثين، بل يمكن القول بأنه تحليل فطري خالص.

مقارنة تطورات علم اللغة وموضوعاته عند العرب والغرب

بعد ما لاحظ الباحث البيانات السابقة من تطوات علوم اللغة في التراث العربي وقدمها البحث في نشأة علم اللغة في تاريخها الأول عند اليونان والرومان ثم يليه البحث في العصور الوسطى منها في العرب والأخر في الغرب. وربما من المستحسن في هذا الدور أن يقارن الباحث بينهما محاولة لمعرفة مزاياهما وخصائصهما من جانب وإعدادا في دخول باب البحث في علوم اللغة من جانب أخر.

فمن المعروف أن العوامل الأساسية في نشأة علم اللغة الذي نذكرها بالنحو في مرحلته الأولى عند العرب هى العامل الديني والقومي والسياسي. فالأول، إن الله يختار العربية كلغة القرآن وهو دستور الإسلام الأساسي، وفيه دليل العبادات والمعاملات. من هنا كان الخوف على القرآن حينا من عوادى الفتنة وحينا من مخاطر اللحن هو الدافع الأولى للسلف الصالح في حرص العربية سعو بها إلى المحافظة على النص القرآني من أهواء التحريف وأخطاء اللحن.

والثاني هو العامل القومي. إن العرب قوامين على أمم ذات حضارات قديمة وثقافات متعددة، بل بعد فتوح الإسلام كان العرب يخرجون من ظلمات الشعبية إلى نور الاتحاد، واللغة قامت في مكان أعلى وسيلة إلى هذه القضية. إضافة إلى ذلك، كان علماء اللغة السلف بذل جهدهم في خدمة اللغة العربية للتغلب على الثنائية الموجودة في الواقع اللغوي الحي على ألسنة العرب، المتمثل في تيارين: ١. الفصحى: و هي النموذج الذي يمثل اللغة العامة أو المشتركة، التي يمكن أن تتعامل بها كل القبائل في إطار معايير محددة من القواعد الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية. ٢. اللهجات المختلفة: التى تختلف باختلاف البيئات والقبائل العربية، فنشطت همة العلماء العرب لجمع المادة اللغوية للغة العربية عن طريق الرواية الشفوية، من أهل اللغة الأصليين ووضعوا حدودا لعملية جمع المادة. فحددوا البيئة المكانية وكذلك الزمانية، و حددوا القبائل التى يصح الأخذ عنها.

والثالث العامل السياسي. أصبحت معرفة اللغة العربية ضرورة لأغراض الإدارة سوى الدينية وإنجاز الإجراءات القانونية والسياسية ووسيلة للمناصب العليا في الدولة الإسلامية، لأن العربية أخذت تحتل تدريجا المكانة التي كانت تحتلها الفارسية في فارس والأرامية واليونانية في بلاد الشام ومصر، فكانت هي الوسيلة الضريرية إلى تقلد المناسب العليا في الدولة.

أما الموضوعات لتلك الدراسات مازالت تتركز في خدمة النصوص التراثية منها القرآن والسنة، مثل كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى (١٢٠ ه) في غريب الحديث وكتاب أبي سعيد بن تغلب بن رباح الكبرى(١٤١ ه) في غريب القرآن. يأتي الكتاب تبيانا للكلمات الغريبة في القرأن والسنة وتشجيعا إلى الاستفادة من أبوابها حيث كان القرآن كدستور ديني ولغوي.

[٣٢] محمود جاد الرب، *علم اللغة نشأته وتطوره*، ص.٤٤

أما دوافع نشأة دراسات لغوية في الغرب في العهد الأول هي تطورات العملية الفكرية عند الفلاسفة اليونانية، هذه العملية تعم في جميع مجالات الحياة الإنسانية منها اللغة. واعتمدت هذه الدراسات اللغوية اعتمادا كبيرا على الأدب. وأما موضوعات مباحثها تدور حول أصل اللغة أهي طبيعية (physis) أم عرفي (nomos)، ودلالة الألفاظ، مثل القياس (analogy)، والدال والمدلول وغيرها.

من أبرز موضوعات الدراسات اللغوية الأخرى التي لا نمكن إهمالها، قد قسم الفلاسفة اليونانية الأسماء بالنظر إلى الجنس إلى ثلاثة أنواع: مذكر (maskulinum) مؤنث (femininum) ومحايد (neutrum). وتأتي التطورات الثمينة عند عهد الرواقيين الذين قاموا بأهمية الدراسات اللغوية، وتتناولوا بصفة خاصة الدراسات الفوناتيكية والنحوية و الدلالية، ووجهوا جل اهتمامهم إلى النحو، يرى كثير من الباحثين أن هذه الدراسات تعد البداية الحقيقية للدراسات النحوية العلمية عند علماء الغرب. واستطاع الرواقيون فصل الدراسات اللغوية عن الفلسفة واعتبروها فرعا مستقلا.

يبدو أن المخالفة التي قد وصلنا إليها على أساس هذه البيانات، أن القرآن هو روح العرب في دراسات لغوية، وكان الحرص عليه في ألفاظه ونحوه وبلاغته ودلالته أمرا ضروريا كالحرص على دينه. وأما اليونان هم يدروسون اللغة ويفكرونها في أخضان الفلسفة العقلية، (العقل روحهم). والرومان يدرسون اللغة لأهداف بلادية وسياسية، وما لديهم الثقافة اللغوية المتعجبة مثل العرب واليونان، بل إنهم قد طبقوا أغلب المقولات اللغوية اليونانية في وصفهم للغتهم اللاتينية.

وليس من الهدف بالقول السابق، أن العربية أعلى اللغات بين تلك الثلاثة، ولكن تاريخها الدراسية في نشأتها الأولى يدل على أنها أقوى وأخلد من غيرها، لأنها لغة دينية من جانب ولغة قومية من جانب آخر، لا تقصر ولا تتغير قواعدها وألفاظها إلا في حد مقبول. أما اللغة اليونانية واللاتينية قد تغيرت تماما وفقا لتغيرات الولايات السياسية وتطورات العملية الفلسفية في الغرب، لأن قواعدها وألفاظها تلد من بطن العقل والسياسة.

أما من ناحية تاريخية، قد تأخر العرب من جارهم اليونان والرومان في دراستهم اللغوية. قد فكر اليونان والرومان منذ زمن غير قصير عن أصل اللغة وألفاظها وتراكيبها، وما وجدنا النصوص والنقوش تدل على عملية دراسية لغوية عند العرب في ذلك العهد على سواء. ولكن من المفيد بهذا البيان، ليس العرب غير مهتمين بلغتهم، ولكنهم قد وصلوا إلى تعظيمها بل تعبيدها في بعض الأحيان، وهذا نستطيع أن نلاحظها في تاريخهم الأدبي الجهلي.

وفي العصور الوسطى ما زال العرب في بداية هذا العصر يدرس اللغة بالدراسة المعيارية، ولكن قد تطورت دراساتها اللغوية مما قبله، قد درس فيه علم الأصوات العربية الذي قام به الخليل وصنفه تصنيفا دقيقيا على أسس فسيلوجية، ثم جاء سبويه بوضوح قطاعات الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة في كتابه. وفي وسط هذا العصر تطورت الدراسة تطورا تماما، يمثل هذا الطور الذي وصلت فيه الدراسات اللغوية إلى درجة راقية اكتملت المقدرة اللغوية، كما ذكرناه سابقا، أن بعض علماء هذا العصر مثل ابن جني قد بحث موضوعا جديا في كتابه الخصائص، يعني خصائص العربية وأسرارها وتعليل الظواهر اللغوية بعللها الحقيقية؛ ويبحث فيه أبحاثا خطيرة في أصل اللغة (أإلهام هي أم اصطلاح).

وعلم تطور هذا العصر الأخير ببعض الأبحاث الجديدة على جهد السيوطي، ففيه موضوعات البحث الجديدة مثل قراءة عن نشأة اللغة وتداخلها وتوافقها، والمصنوع والفصيح، والمستعمل والمهمل، والحوشي والغريب، والمعرب والمولد، والاشتقاق والاشتراك، والترادف والتضاد، والنحت، والتصحيف، والتحريف، والشوارد والنوادر، وما اختلف فيه لغة الحجاز ولغة تميم ويقع في جزئين كبيرين.

أما العصور الوسطى في الغرب كانت دراسة لغوية تختلط تماما باللاهوت الكاثوليكي والفلسفة الأرسطية، كانت اللاتينية لغة الدرس العلمي ولغة الاتصال بين الدول في أوروبا كما كانت لغة الكنيسة في الغرب. وسميت دراساتهم دراسة نحوية فلسفية بمنطق النحو أو بعبارة أخرى تسويغ القواعد النحوية منطقيا، وأنكرت هذه

الدراسات البحوث التي كانت تعتمد على النصوص أو ما تسمى بالتجريبية التي كانت توصف بها الدراسات اللغوية في العالم القديم.

يبدو أن النتيجة التي وصلنا إليها مرضية، أن في هذا العصر كان العرب قد تقدم آراءهم في الدراسات اللغوية لاسيما في الطرف الثاني، الذي سماه الباحث بمرحلة النمو والإبداع اللغوي. أن الفلسفة اليونانية تسربت إلى الثقافة العربية بكثرة في عصر الخليفة المأمون الذي كان يميل إلى مذهب المعتزلة والذي يعتمد على الأدلة العقلية في المقام الأول. وكان النحاة منذ ذلك الوقت يعتنقون مذهب الإعتزال فيخالطون الفكر اليوناني الذي جاءت به جهود الترجمة.

إن الخلاصة التي قد وصلنا إليها على أساس البيانات السابقة، يتميز علماء اللغة العرب القدامى بتركيز بحوثهم اللغوية، واهتمامهم باللغة العربية دون التوسع والتطرق إلى اللغات الأخرى وإن كانوا قد أدركوا ذلك، إلا أنهم اقتصروا فى اللغة العربية لخدمة الدين الإسلامي ولغة القرآن الكريم.

وفي حلال هذا البحث اتضح لنا الملاحظة الذكية لعلماء اللغة العرب القدامى لقدرتهم العقلية فى التعرف عن ماهيةِ اللغة، رغم أن وسائل البحث لديهم لا تصل إلى ما وصل إليها علماء اللغة المحدثت من وسائل حديثة وتكنولوجية متطورة. العلماء العرب لا يعرفون المنهج المقارن أو التقابلي لأنهم لم يعتمدوا على المقارنات اللغوية، كما فعل علماء فقه اللغة المحدثون. وهم قصروا درسهم على اللغة الفصحى المشتركة التى نزل بها القرآن الكريم.

وكانت النتيجة الأخيرة التي نالها الباحث، أن الدراسات اللغوية السابقة تعكف على اللغات المكتوبة أوتقوم على دراسة النصوص، وتعدها هي النموذج الصحيح والمقبول للغة، وتغض الطرف عن الخطاب المنطوق، واللهجات، وتزدري هذا النوع الأخير، وتراه غير أهل للدراسة، إلى أن انتهت الدراسات الحديثة إلى أهمية اللهجات، ودورها في اللغة وأثرها في المجتمع، وأنها تعبر على نحو دقيق عن المجتمات التي تحدثت بها، ووجدت الدراسات الحديثة أن الخطاب المنطوق أكثر تداولا وانتسارا وتأثيرا.

قال عكاشة أن دراسة النصوص التي تمثل لهم قيمة تراثية وذات هيبة وقداسة، وهي لا تغني شيئا عن لغة التواصل اليومي والتي أصبحت قياسا عليها لغة أجنبية أو طلاسم تحتاج فك رموزها وشفراتها، فظهرت دعوة أكثر تطرفا تدعو إلى نبذة لغة التراث واستبدلها بلغة الخطاب اليومي. هذا هو الهدف من وراء الدراسات اللغوية الحديثة، والمناهج التي وضعها العلميء في معالج كافة قضاياها، والتي يتبين منها أن موضوع علم اللغة دراسة كافة المستويات اللغوية، وكافة قضايا اللغة، ويشمل كذلك علاقة اللغة باللغات الأخرى[٣٣].

فموضوع علم اللغة ليس لغة معينة من اللغات، بل «اللغات» من حيث هي وظيفة انسانية عامة، والتي تبدو في أشكال نظم إنسانية اجتماعية عامة، والتي تبدو في أشكال نظم إنسانية اجتماعية تسمى اللغات كالعربية، والإنجليزية والفرنسية، أو اللهجات أو أي اسم آخر من الأسماء التي تدخل تحت مفهوم «اللغة» أوفروع منها. هذه الصور المتعددة واحدة في جوهرها، وتمثل وظيفة إنسانية[٣٤]. ويهتم علم اللغة بكشف الأبعاد الحقيقية للظاهرة اللغوية، وليس هدفه –كما كان الحال في الدراسات اللغوية قبل العصر الحديث– إصدار أحكام الصواب والخطأ، بل هدفه الأساسي أن يقرر طبيعة هذه العلاقات في واقعها الكائن أو الذي كان..))[٣٥]

الخلاصة

قد قدم الباحث المعلومات القصيرة عن دراسات لغوية في العصور القديمة و الوسطى عند العرب والغرب وتليها المقارنة بينهما في تطوراتها وموضوعاتها. وقد شرحها شرحا إجماليا. أن القرآن هو روح العرب في دراسات لغوية،

[٣٣] محمود عكاشة، *علم اللغة: مدخل نظري في اللغة العربية*، ص. ٢٢

[٣٤] محمد السعراني، *علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي* (القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٢)، ص. ٥١

[٣٥] محمود فهمي حجازي، *المدخل إلى علم اللغة*، ص. ١٥

وكان الحرص عليه في ألفاظه ونحوه وبلاغته ودلالته أمرا ضروريا كالحرص على دينه. وأما اليونان هم يدروسون اللغة ويفكرونها في أخضان الفلسفة العقلية، (العقل روحهم). والرومان يدرسون اللغة لأهداف بلادية وسياسية، وما لديهم الثقافة اللغوية المتعجبة مثل العرب واليونان، بل إنهم قد طبقوا أغلب المقولات اللغوية اليونانية في وصفهم للغتهم اللاتينية.

أما العصور الوسطى في الغرب كانت دراسة لغوية تختلط تماما باللاهوت الكاثوليكي والفلسفة الأرسطية، كانت اللاتينية لغة الدرس العلمي ولغة الاتصال بين الدول في أوروبا كما كانت لغة الكنيسة في الغرب. وكان العرب قد تقدم آراءهم في الدراسات اللغوية لاسيما في الطرف الثاني، الذي سماه الباحث بمرحلة النمو والإبداع اللغوي. أن الفلسفة اليونانية تسربت إلى الثقافة العربية بكثرة في عصر الخليفة المأمون الذي كان يميل إلى مذهب المعتزلة والذي يعتمد على الأدلة العقلية في المقام الأول.

وخلاصة القول، أن تاريخ الدراسة العربية في نشأتها الأولى يدل على أنها أقوى وأخلد من غيرها، لأنها لغة دينية من جانب ولغة قومية من جانب آخر، لا تقصر ولا تتغير قواعدها وألفاظها إلا في حد مقبول. أما اللغة اليونانية واللاتينية قد تغيرت تماما وفقا لتغيرات الولايات السياسية وتطورات العملية الفلسفية في الغرب، لأن قواعدها وألفاظها تلد من بطن العقل والسياسة.

المراجع

أيوب، عبد الرحمن. *اللغة والتطور*. القاهرة: معهد البحوث والدراسات، ١٩٦٩

جاد الرب، محمود. *علم اللغة نشأته وتطوره*. القاهرة: دار المعارف ١٩٨٥

حجازي، محمود فهمي. *علم اللغة العربية: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية*. القاهرة: مكتبة غريبة، د.س

حسن، تمام. الأصول: *دراسة ابيستيمولوجيا للفكر اللغوي عند العرب*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة ١٩٧٢

روبنز، ر. ه. *موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)*. الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٧

السعراني،محمد. *علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي*. القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٢

الصالح، صبحي. *دراساتت في فقه اللغة*. بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٦

عبد الرحيم،محمد. *دور علماء العرب في علم اللغة (ابن جني نموذجا)* كلية اللغة العربية بأسيوط، المجلة العلمية –العدد الثلاثون، الجزء الثاني، أكتوبر ٢٠١١

عكاشة، محمود. *علم اللغة: مدخل نظري في اللغة العربية*. القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠٠٦

عمايرة، خليل أحمد. *المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي*. دبي: مؤسسة علوم اللغة ١٩٩٠

عمايرة، خليل أحمد. *دراسات وآراء في ضوء علم اللغة المعاصر– في نحو اللغة العربية وتراكيبها (منهج وتطبيق في الدلالة)*. عجمان: مؤسسة علوم القرآن، ١٩٩٠